بشار بن برد

صورة من وحي حادث عصره

الشعراء ابين الناس نفوساً واجلاهم باطناً . ولهذا ترى انهم اكثر ابناء آدم تعرضاً لنقد الناقدين . على أنهم بعد من طينة آدم وحواء ، وليسوا با كثر من كل الناس إسفافاً . ولا أعلى منهم فى الآداب مكانه . فهم طبقة خاصه تمتاز بموهبة ما . موهبه فنية لاتخرج في حكمها عن بقية المواهب التى تمتاز بها بقية الطبقات من مجموع الحيوان الناطق . والحقيقة ان نفسية الشعراء نفسية مفضوحة في شعرهم بينة فى خطرات نفوسهم . جلية واضحة ، بل تكاد تكون ملموسة ، دون غيرها من نفسيات الناس . ولولا عجز الشاعر عن ضبط هو اجس نفسه ، وفقد الارادة عن كتمانها والترسل بها شعرا ، لكان ابعد الناس عن صفة الشاعرية . فعجزه هذا سر من اسرار قدرته الشعرية ، وضعف ارادته سبب أول من الاسباب التى تسوقه الى تصوير ما فى نفسه ، ظاناً انه انما يعبر عن حقائق العالم وعن نفسيات غيره من الناس بما يصور من خطرات لاتقوم الافي نفسه وحده .

كنت اسير يوما مع صديق اديب على شاطىء النيل ذات اصيل وقد فاض النهر فى آخر شهر آب وانعكست على صفحته النحاسية اشعة الشمس الذهبية فوقف صديقى أمام النهر المتدفق المنساب فى جوف الطبيعة انسياب الامل العريض في نفس أمضها الفراق ، وقد بهت من عظم مايرى ، فما لبث ان اخذ كتابا كان معى و كتب على أول صفحة منه .

الله أنت وأنت الله يانيل منى لشخصك تعظيم وتبجيل
يبدو جمالك ملء النفس قاطبه فيأخذ النفس تكبير وتهليل

ولم يك صاحبي من المشتغلين بصناعة النظم ، ولم اعرف عنه انه شاعر . بل

هو ناثر من كبار الناثرين وان كانت في نفسه نزعة الى الشعر ، فانما هي نزعة تلوح ضئيلة بجانب حب البحث والاختبار ولعله يقرأ اليوم هذا ، ولعله يذكر هذه المناسبة ، فيستجمع فى مخيلته مرآى النيل ومشهد امواجه المتلاطمة الآخذ بعضها برقاب بعض ، ولعله يكمل ما بدأ منذ عشر من السنين ، فيخرج قصيدة بليغة فى وصف النهر الفائض ، بل فى وصف ماقاضت به نفسه من الصور المتخالطة

وبعد . فهل رأيت فى خطاب ذلك الصديق الى النيل ، كيف كشف عن نفسه وكيف جعل النيل فى منزلة واحدة مع الله وكيف بدا جمال الطبيعة ملء نفسه ممثلا في النيل وفي ذلك الظرف الذى انعكست فيه اشعة الشمس عند الاصيل على صفحة النهر النحاسية الجميلة ، فأخذ ذلك الجمال على نفس الصديق اطرافها وملا جوانبها فلم يترك فى نفسه من مكان خال ليسع اية فكرة أو معتقد أو مذهب أو صورة أخرى ، وان وحدة الوجود التصوفيه لم تترك فى العالم من شيء عند شاعرنا الاديب الا الله والنيل ، ولا شيء غيرهما . وما من ريبة في ان هذه الخطرة التي فاضت بها نفس الصديق فى تلك الآونه قد فضحت سرائر نفسه واظهرتها على حقيقتها الكامنة دون مظهرها الخارجى فنمت عن ان تلك النفس لو حوطتها عقائد الوثنية لكانت اثبت فيها من كل ماخلق الفكر من صور الدين فوق هذه الارض .

ولو أنك نظرت معى فى ملامح صديقى وما ارتسم على وجهه من مظاهر الطرب الشديد والعطف مشوبان بشيء من الانقباض والحيرة ، لاعتقدت بان تلك الحيرة وذلك الانقباض لايدلان على شيء دلالتهما على تنازع بين التقاليد الوراثية في النفس اذ تتناحر جادة فى سبيل ان تملك كل منها اطراف النفس تحت تاثير ظرف من الظروف . وكأن الطبيعة ماخطت على وجه ذلك الصديق مسحة من الحزن تراها نامة من حقيقة نفسه بلا شعر حتى و بلا حديث ، على الرغم مما يلوح فى كلامه وحركاته من مظاهر المرح والجذل ، الا لتفضح سر نفسه وان جهد نفسه

في اخفائه . وما ان لاح على وجهه في تلك اللحظة التي أخذ يخاطب فيها النيل من شيء ، وما ان زاد على صفاته من صفة الا انفعال ممسوس بكآبة شديدة ازدادت معها مسحة ذلك الحزن العميق الذي خطته يد القدرة على محياه .

على هذا النسق يدل الشعر دلالة صحيحة على حقيقة نفسية الشاعر . فان الشعر هو الصوت الصارخ الخارج من اعماق النفس ، بل ومن اعمق اغوارها ، ليسبك في اللغة عنواناً حياً على النفسية التي بعثته من قرارة الوجدان الى عالم الخطاب .

ومهما يكن من تأثير روح العصر على الشعر والشعراء ، ومهما يكن من امر حاجات الحياة وتأثيرها في الشاعرية أذ تقلبها في بعض الاحيان الى صناعة للنظم تبدو جلية واضحة في المديح وغيره من صور الشعر قضاء لحاجات ما تحركت لها الشاعرية ولا فتنت بها النفس ، فان الشاعر لن يفلت من القدر طلقاً ، ولا بد من ان تعثر في شعره على خطرة أو مقطوعة قصيرة أو مناجاة يرسل بها الى الله أو الى الطبيعة أو إلى شيء أو معنى مبهم قد يشعر به ولا يستطيع التعبير عنه ، ما تنم في الدنيا عن شيء الا عن دخيلة فطرته وعن نواتها التي التأمت من حولها كل عناصر نفسه .

ان ادل صور الشعر على نفسية الشاعر انما هو شعر الانفعال . الشعر الذي يبعثه انفعال خالص في النفس غير مشوب بشيء من حزم الارادة ولا وازع العقل ولا تكلف من ناحية الصناعة . فاذا اردت ان تبحث في مجموعة ما اخرج شاعر من قصيد لتستدل بشيء منه على نفسيته ، فانما يجب عليك أن لا تتعمد التغلغل وراء معانيه الخفية ولا ان تغوص وراء تشبيهاته ، بل يتعين عليك أن تبحث في أي المواضع من شعره بعث انفعاله وتجرد عن ارادته في ضبط معانيه وعرى عن عقال عقله ليسير وراء ما يريد ان يخرج من معنى معقود على غرض يريد الوصول اليه . واني لاتخيل ان هذه القاعدة لا تخطىء اذا امكن تطبيقها بما

يقتضى لذلك من الحيطة والحذر وطول الاناة والصبر على البحث وقوة الملاحظة

ولو أنك ثابرت على اتباع هذه القاعدة وروضت نفسك على التزامها لبان لك أن تطبيقها على الشعر الجاهلى أيسر منه في الشعر المخضرم، وأنها أبعد ما تكون يسرا في التطبيق على الشعر من بعد ذلك. فان انسانى الجاهلى ما كان يعرف الا الانفعال لشيء يملك جوانب النفس حتى في أخطر ناحية من نواحى الشعر العربى، ناحية المديح والهجاء. اما هذه الناحية فقد فسدت فى عصور المدنية كل فساد حتى شوهت جمال الشعر، اللهم الا من ناحية الصناعة والانسجام. فان المديح والهجاء من قبل، ما كان ليفيض باحدهما خيال شاعر من الشعراء الا تحت تأثير انفعال يدل دلالة واضحة، وقد تكون غير ذلك، لا على نفسية الشاعر وحده، بل على بعض صفات حقيقية يتصف بها الممدوح أو المهجو

فلما ضغطت حاجات المدنية والترف على النفسية الشعرية وحوطتها عوامل الجشع الاجتماعى بمؤثراتها خرجت بمواضع المدح والهجاء عن ان تكون شعراً يدل على الواقع، إلى صناعة يستدرها الشاعر أكف الاغنياء والامراء بالحق والباطل. ففسدت صورة من صور الشعر كانت من الممكن أن تظل نبعا فياضاً بالدرس لمن يريدون أن يكتبوا فى اشخاص الذين اشتهروا من العرب في عصور مدنيتهم. وأنت بعد تقلب ما كتب الشعراء فى أمير أو وزير، ثم ترجع الى المدونات التاريخية، فلا تقع الا على صورة تختلف تمام الاختلاف عن الصورة التى يطبعها في مخيلتك الشعر المقول فيه. ثم انك لا تجد المدونات الا على صورة من النقص لا تزودك بسنادة قويمة يمكن الاعتماد عليها فى بحث تاريخى أو تحليل نفسى. فان سطوة أهل الجاه قد حالت دون حرية الاقلام في تقرير الحقائق حتى، أنك لتجد مدونات التاريخ قلما تتكلم فى اشخاص الزمان الذى كتبت فيه الا مشفوعة بالمديح شأن الشعر، ثم تجدها تتكلم فى اشخاص زمان سابق بشيء من الاستقلال في الرأى، ولكن الشك يساورك فيه كل مساورة، لانها على

الاقل صورة منقولة للكاتب أو للمدون على السنة من تلقفها من الرواة، وقد تكون صحيحة، ولكن من المحتمل أن تكون خطأ وافتراء

كل هذه الاسباب يجب أن تجتمع فى ذهن الكاتب إذا اراد أن يكتب فى بشار بن برد، مستعينا بدرس شعره على معرفة نفسيته وتحليلها. وأنت تعرف بشارا وتعرف عصره. عصر قريب من بدء انقلاب تاريخى عظيم، لا فى تاريخ الاسلام والمدينة الاسلامية وحدهما، بل في تاريخ الدنيا. استتب الامر للعباسيين في بغداد و بدأت موارد الامبراطورية الاسلامية العظمى تزود العاصمة الجديدة بكل ماتستطيع من صنوف الترف والانغماس في شهوات ان لم تبلغ في عصر بشار مبلغها فى عصر الرشيد او المأمون مثلا، فانها صورة تكفى اذا قسنا باخبث صوره الفساد الرومانى، لان تولد فى ذهنك فكرة ان المدنية الاسلامية اينما حلت وكانت قد حملت معها بزور انحلالها، وقد نبتت تلك البزور في كثير من أطوار تلك المدنية ولكنها ظلت دائما كامنة دفينة فى أعماقها، منقولة عن البادية الى الحاضرة مرتكزة على أساس من الصفات النفسية، ما كانت البيداء الا سدا منيعاً حال دون ظهورها بذلك المظهر الذى تجلت به فى بغداد فى أوائل العصر العباسى وأوسطه، وانتهى بتغلب شعب جديد كانت السهول مباءته والجبال والاحراش مثابته

انك لا تستطيع أن تتغلغل في حياة بغداد الاجتماعية الا من طريق كتب الادب. وما ترويه تلك الكتب مشعب الاطراف كثير الوجوه متعدد القصص. على انه فى مجموعه لا يحوط نفسك بشيء ولا يولد فى ذهنك من فكرة الا فكرة الاكباب على الملذات والمبالغة فيها والافتنان فى حيازتها بكل طريق مستطاع سواء ارضيت به شريعة الآداب أم نفرت منه، ولا أريد أن أذهب بالقارىء بعيدا ولا أطوف به فى مجاهل كتب الادب الكثيرة، فان كتاب الف ليلة وليلة ماهو الا صوره تكاد تكون صحيحة فى فاسفة الحسيات التى تملكت فكرة

الناس وأذلت أعناقهم فى بغداد فى أزهر أيامها بالمدينة الإسلامية . بل يكفى أن تطوف بسوق النخاسين فى بغداد لتطبع فى ذهنك صورة صحيحة من مدنية ذلك العصر ، هي أشبه الأشياء بتلك الصورة التى تصورها لنا صفحات التاريخ عن آخر عهد مر بمدينة بومبى قبل نكبتها

قال كاتب عربى

« ولقد شهدت سوق الجوارى فى مدينة بغداد ، وقد اقيمت فى الموضع المعروف بسوق النخاسين فرأيت فيهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينة والطائف واليمامة ومصر ذوات الالسنة العذبة والجواب الحاضر . وكان بينهن من الغانيات اللاتى يعرض بما عليهن من اللباس الفاخر الذى لا غاية بعده ، بما يتخذن من العصائب التى ينظمنها بالدر والجوهر ويكتبن عليها بصفائح الذهب كلاما يحلو لاهل الطرب ، فرأيت على بعض العصائب ـ « وضع الخد للهوى عز » ورأيت على بعضها ـ « من كان لنا كنا له » ورأيت فى صدر جاريه هلالا مكتوبا عليه .

افلت من حور الجنان وخلقت فتنة من يرانى

وقرأت فى عصابة أخرى

ألا بالله قولوا يارجال أشمس في العصابة أم هلال

« وبعض الغوانى المترفات كن يتخلصن سراً من حيث لا يردن المقام ثم يأتين السوق متواريات عن عيون الرقباء الى أن يقع سوقهن على أحد من الناس ومواليهن غير عالمين ، فيتصرف النخاسون في بيعهن مثل تصرف التجار ببضائعهم » .

هذه الصورة على ضؤولتها كبيرة الادلة على روح ذلك العصر ، تلك الروح التى ما كانت تقود خطوات المدنية القائمة فيها إلا الى الانحلال والفساد . وهل هى إلا صورة رومانى آخر عصور مدنيتها حيث كان الرجال يعدون السنين بعدد النساء

اللائى أتخذنهم عشيقات، وحيث كان الأبناء لا ينسبون الى آبائهم، بل الى امهاتهم، فيقال ابن فلانة لا ابن فلان ! !!

ذلك الجو الذى حوط بشار بن برد ، ما كان ليخرج لنا من الشعر إلا ما وصل الينا عن بشار، وما كان ليزودنا بشيء من مورد البحث إلا بكل مايمكن أن يستدل به على عناصر الفساد الذى أخذ يدب فى جسم الدولة العباسية في بغداد منذ أول نشأتها إلا قليلا .

ولا تجد في ذلك الجو المعتم إلا مفاسد وشهوات ضالة مضلة، ما كانت لتؤثر فى شيء بقدر تأثيرها في الروابط الاجتماعية التى تكون الاسرة ، وهى سنادة البناء الاجتماعى، وأول ركيزه في قيام المدنيات ؟

ولعمرك لو أردت أن تبحث فى نظام الاسره اذ ذاك وتمشيت من ثم الى البحث فى اخلاق المرأة التى تريد وما أرادت في كل الازمان المتمدينة إلا أن تستقل برجل تهبه من عواطفها بقدر مايهبها من عواطفه، ويخصها من حبه بقدرما تخصه من حبها، ألا ترى معى بحق أن نظام الاسرة كان بأثرا، وان رابطة المجتمع القائم عليها كانت مفصومة، وان الحياة اذ ذاك كانت عبارة عن نسيج مفكك الاوصال، لم يرأب صدوع الاجتماع فيه نظام مدنى، ولم يقم فيه المرأة من وزن، اللهم إلا بمقدار ماترضى في الرجل من شهوات هى أحط ما أخرجت الطبيعة من فاسد عناصرها في الحياة؟ وهل من المستطاع أن تتكون أسرة متلائمة العواطف متناسقة الآداب وقد تحكمت فيها الاماء اللواتى كن لا يعشن إلا متطفلات على شهوات الرجال متضاربة مراميهن، متنافرة مصالحهن متناثرة حول الشهوة رغباتهن، متضائلة بجانب الرذيلة فضائلهن، مركزة حول البغض والحسد أفكارهن، قريبات من الاثم، بعيدات عن التقوى، هائمات جامحات شاردات، مامن حاجة لهن فى الحياة، ومامن مطمع فى الدنيا، سوى ارضاء أفسد ما انطوت عليه نفس الرجل من الصفات ؟ وأنت بعد هل تجد للرجل من مجال ينمى من صفات الرجولة فيه الا معهده المنزلى ؟ فكيف به وهو لا يرى إلا صور الخنوثة قائمة من حوله

تزكي فيه مواضع الفساد، مفضية به عن مواضع العفة والشرف ، نازلة به الحضيض ، هابطة به الى الدنى والمفاسد ، سالبة منه شرة الرجولة ، قاتلة فيه صفات الذكورة الصميمة ؟

هذه الصورة تتحيز في ذهني وتظل شديدة الأثر فيه كلما فكرت في عصر بشار بن برد وكلما فكرت في العصر العباسي من ناحيته الاخلاقية . على أنك ان فكرت في العصر العباسي من حيث الادب لوجدت فيه مناقص وكمالات شأن كل الاعمال الانسانية . على أن انقص ما أراه فيه نزعة الادباء الى المنابذة بالالقاب والانساب، وجنوحهم الا المفاضلة بين الشعراء أو الكتاب. وهي ظاهرة أقل ما فيها انها تدل على انصراف عن الادب الحقيقي على الوجه الاكمل الى اشياء لا تضر ان تركت ولا تفيد اذا ذكرت، بل انها فوق ذلك من مواضع الضعف في فنون الادب وفي الصناعات الادبية.

قال الرواة ان أحسن الناس ابتداء في الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول « ألا عم صباحا أيها الطلل البالي » . وحيث يقول « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » وفي الاسلام القطامي حيث يقول « انا محيوك فاسلم أيها الطلل » . ومن المسلمين بشار حيث يقول

أبى طلل بالجذع أن يتكلما ... وماذا عليه لو أجاب متيما

وبالفرع آثار بقين وبالاوى ... ملاهي لا يعرفن الا توهما

وما أعتقد أن بشارا والقطامي الا من الناسجين على وتيره امرىء القيس . فكلاهما في حسن ابتدائه خاطب الطول البوالي . وانك لتجد في النواح على الطلول رنة حزن في النفس عميقه وهي على ما تبعث من الحزن في النفس لا تولد فيها الا الذكريات ، ذكريات المنازل الخاوية والصور الذهنية الحية بما يتخللها من الانفعالات الشديدة الاثر . والدليل على أن بشارا والقطامي قد نسجا على منوال امرىء القيس

أن امتع بيت قاله بشار قد ظل زمانا يجهد نفسه لينظمه على نسق بيت امرىء القيس المشهور.

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

فقال بشار

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا واسيافنا ليل تهاوى كواكبه

على أن هذا البيت لا يخلو من نقد فانه أقل من سيوفه ، لان اسياف جمع قلة . ويقولون ان بشارا أغزل الشعراء حيث يقول

أنا والله اشتهى سحر عينيـ ـك وأخشى مصارع العشاق

ولو قالوا بانه اجبن المحبين وأحرص العشاق على حياته لكان ذلك به أولى. على أننى لا أجد فى مباحث الادب من مبحث هو أعق لفضيلة الاقساط في القول من المفاضلة بين الشعراء أو الموازنة بينهم أو الوساطة فيما اختلفوا فيه من مذاهب الشعر. فانت تجد أن لكل شاعر من فحول الشعراء صفة قلما يدركه فيها شاعر غيره ، وانه نسيج من الشاعرية وحده غير قائم على أساس مستمد من تقليد أو تشبه بغيره. لان الشاعرية سليقة موروثة في النفس ولن تتماثل الشاعريات إلا اذا تماثلت الصفات الموروثة. وهذا أمر بعيد منال متعذر وقوعه .

وانا لا نحوطنا شبهة مطلقا فى أن شاعرنا الذى نتكلم فيه اليوم نسيج من الشاعرية وحده، وان فى شاعريته من الصفات الموروثة لم تتهيأ لشاعر غيره كما أن بقية فحول الشعراء لكل منهم صفات لا يشاركهم فيها بشار ولا غيره من اهل هذا الفن المطبوعين عليه .

على أنه تعترضنا في بحث بشار من ناحية الشاعرية ومن ناحية دلالة شعره على نفسيته موانع كثيرة . أولها : أننا لا نستطيع أن ندرس حقيقة العصر الذى عاش فيه من ناحية النظام الاجتماعى دراسة تولد فى أذهاننا صورة غير الصورة التى وصفناها من قبل ، وانها لصورة آثارها كثيرة الذيوع فيما وصل الينا من شعر بشار.

وثانيها : أنه لم يصل الينا من شعر بشار الا نتفاً ومقطوعات قصيرة ولم يصل الينا من شعره قصيدة كاملة .على اننى اعتقد أن ما وصل الينا من شعره كاف لدرس قوة شاعريته والاستدلال بها على حقيقة نفسه .

ولن أشك بجانب هذا فى أن شعر بشار لو وصل الينا كاملا، كما وصل الينا شعر المتنبي أو ابى العلاء المعرى أو غيرهما من الشعراء، لكان لنا منه مورد كبير فى دراسة عصره والاستدلال به على حالات قامت في ذلك العصر. فان ما وصل الينا من آثار بشار الادبية ،على قلتها ، تدلنا دلالة واضحة على ان ذلك الشاعر الكبير كان قد اندمج فى جوه اندماجا تاما وامتزج دمه بعناصر المدنية التى قامت من حوله . فهو صورة من ذلك العصر. صورة أقل ما فيها من الدلالة على الروح التى ذاعت فيه، انها خارجة من نفس شاعر ملء نفسه الشاعرية، صورة مفضوحة في الشعر غير موشاة بشيء من صناعة الكلام ولا مغشاة بجمال النثر ولا ببيانياته ولا خطابياته، ولا محلاة بالصناعات البديعية التى لجأ اليها كتاب ذلك العصر .

و بعد فانت لا تبعد عن روح العصر العباسى بقدر ما تلجأ الى الصناعات النثرية التى ذاعت فيه. فانها لا تعطيك من صور ذلك العصر إلا صورة مكذوبة قد تستدل منها على شيء من رقى اللغة أو انحطاطها .وقد تستدل منها على شيء من جمال الاساليب أو فسادها .ولكنك لا تلجأ اليها للاستدلال بها على روح ذلك العصر الحقيقية ،الا وتكون لجأت الى أوهن ناحية من نواحى التنقيب فى عصر هو أبعد العصور عن تزويدك بمراجع يصح أن تتخذ دعامة للبحث العلمى الادبى بحثا يرضى الحق والضمير .

***

— ٢ —

الى هنا ينتهى تحليلنا لعصر بشار بن برد وكيف كان بشار صورة صادقة لعصره الذي عاش فيه ، وكيف ان ما وصل الينا من بشار على قلته يعبر أحسن تعبير عن النزعات

التي قامت في ذلك العصر وعن الانفعالات التي جاشت بها العواطف الثائرة في صدور الرجال والنساء . ولم أشأ أن أتورط في الكلام في هذه الاشياء باستفاضة واسطراد متخذاً من كتب الادب أمثالا ومن مجالس العظماء والامراء أدلة على صدق ما ذهبت اليه حذر الاطالة في شيء يكاد يكون الشعور بصحته أسبق الى النفس من الادلة والبراهين التاريخية والعقلية. على اننا لانريد بعد هذا أن نتورط في الوصف والشرح لا كثر مما أدلينا به من قبل . لهذا نمضي في تحليل نفسية بشار بن برد لنخلص من هذا التحليل بفكرة في دلالة شعره على نفسيته المتوهجة الثائرة المشبوبة بتلك النيران العاطفية التي صبغت العصر الذي عاش فيه.

اعرف في العربية ثلاثة شعراء لشعرهم في اذني نغم وحده ولمعانيهم مرمى بذاته بل يكادون يخرجون من الحيز الذي شغله شعراء العربية الى حيز لم يلجه من قبلهم ولا بعدهم شاعر نطق بالضاد

وليس هذا الحيز مقصوراً على متانة في اللغة ولا سبك في الاسلوب ولا ترفع في المعاني ولا ما الى ذلك مما يتفوق به الشعراء في صناعة الشعر ، بل هو حيز العقلية الايجابية التي تنظر الى الحقائق كما هي حتى في الهجو والمديح ، والنفسية التي تنطبع عليها صور الزمان الذي تحفها نظمه الاجتماعية على اختلاف صورها وألوانها .

هؤلاء الشعراء الثلاثة هم مهيار الديلمي و بشار بن برد وابن الرومي. وأولهم كان تلميذاً للشريف الرضي وراوية له، فانطبع بطابع التصوف والزهد حتى انك لتجد ذلك شديد الظهور في شعره بين الأثر في نزعته الشعرية . و بشار بن برد عاش في عصر انخلاعة والفتنة فكان خليعاً مفتوناً بصور المدنية كما اقتبست عن العالم الروماني والفارسي وكلاهما تطوح في الحسيات حتى لقد بلغ منها أقصى المبالغ . وابن الرومي كان عبداً اشترى بالمال فكان في اخلاقه عبداً، وفي خياله عبداً، وفي تصوراته عبداً، رقيقاً، على الرغم من جودة شعره وقوة بيانه و بالغ وصفه.

ولعل السبب في هذا انهم بعيدون عن العقلية العربية فكانوا نسيجاً وحدهم

في الشعر وفي الشاعرية. فان مهياراً وبشاراً كلاهما فارسي وابن الروم بعيد عن الدم العربي بعد السماء عن الارض. ولا خفاء في أن العقلية الفارسية عقلية تتمشى فيها أصول الآريين الذين غزوا الهند ودوخوا الممالك في العصور القديمة والذين لهم في الفلسفة جولات لم يشق غبارهم فيها أحد ولهم في اللغة آثار لم يستطع الى الآن أحد من أهل العربية أن ينال منها بما يسقط من قيمتها ويحط من قدرها. وهم فوق ذلك حسيون لا يؤمنون إلا بالحس، اثباتيون يحكمون العقل قبل المشاعر. حتى انك لو رجعت الى الاديان التي انتشرت فيهم لما رأيت في دين منها إلا أثر الطبيعة متجلياً بارزاً كأن الذين وضعوا هذه الاديان لم يعبدوا في الواقع إلا الطبيعة ولم يريدوا بما وضعوا من صور الدين إلا أن يدمجوا الانسان في الطبيعة ادماجاً أساسه مثل يتخايل اليهم من طريق الدين، ولكن ليرجع بهم الى الطبيعة سعياً.

خذ دين مانى بن فاتك ويكاد يكون آخر الاديان ظهوراً في بلاد فارس قبل الاسلام. فلقد ظهر مانى في أيام سابور بن أردشير وقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة ٢٧٧ للميلاد. ويقول العرب بانه أخذ ديناً بين المانوسية والنصرانية وكان يقول بنبوة عيسى وينكر نبوة موسى. غير أن صاحب الفهرست يذكر ما هو أقرب من هذا الى حقيقة الدين الذي ظهر به مانى. فيذكر أن مانى «يزعم» بان العالم مصنوع من أصلين قديمين هما النور والظلمة وانهما أزليان سرمديان وأنه ما من شيء إلا وهو من أصل قديم.

وفي ما قال صاحب الفهرست بعض الحقيقة لا الحقيقة كلها. والحقيقة أن دين مانى يقوم على أصلين الاول القدم المطلق والثاني تفاعل الاضداد أو تواترها. وانى أرى أن استعمال تواتر الاضداد أرجح من استعمال التفاعل في معنى لم يرد به صاحب هذا الدين ما تؤدى اليه هذه الكلمة تماماً. فكل شيء عندهم قديم أزلي سرمدي وان الطبيعة كلها قائمة على أضداد تتواتر ولكن لا تفنى فهي قديمة أيضاً. فكأن مانى

لم يقل بان الاصل في العالم النور والظلمة. بل قال بان النور والظلمة من أظهر الاضداد التي تتواتر تواتر غيرهما من الاضداد .

من هنا يظهر أن مانى بن فاتك لم يقصد بالدين الذى وضعه أنه تفسير لحقائق ما بعد الطبيعة والغيب من طريق الدعوى، بل قصد الى الطبيعة الحافة به يدمجها فى الدين ليخلص من هذا بنتيجة هى أن يندمج الناس فى الطبيعة اندماجا أساسه المعتقد واليقين . وهذا بالذات ما تتخيله العقلية الآرية، بل لا نبالغ اذا قلنا بان العقلية الآرية لا تنتج إلا هذا. فهى عقلية تؤمن أولا بالحواس ومن طريق الحواس تحاول الاندماج في الطبيعة .

ولما استقر العقل الآرى فى أوربا وغزاها الدين المسيحى وهو دين سامى بحت، لم تلبث العقلية الاوربية المتأصلة من الطبيعة الهند وجرمانية أن قلبت الدين السامى النازع الى الغيب وما بعد الطبيعة الى دين تتجلى فيه المحسوسات وتبرز مظهرة آثارها فى كل شىء فلم يبق من دين المسيح عيسى بن مريم في أوروبا إلا الاسم ولم تسمح العقلية الاوروبية لشىء من هذا الدين بان يبقى ويعيش في جوها الا ما وافق طبيعتها. فبرز الدين النصرانى بعد قليل فى ثوب اندمجت فيه الطبيعة، لا على نفس النمط الذى ادمجها به مانى بن فاتك، بل على صورة أخرى استمدت من وحي الفكرة لا من وحي التواتر والامتداد. ولكن كل ذلك يتفق في النهاية. يتفق في أن العقل الآرى نزاع الى الاندماج في الوسط الطبيعى اندماجاً تاما. أما العقل السامى فعلى الضد من ذلك. فهو وهاج براق وثاب الى الغيبيات متهافت على العلم بما لا يستطيع العقل الصرف أن يعلم منه شيئاً .

هذه العقلية بذاتها تتجلى في الفرق بين من ذكرنا من الشعراء وبين شعراء العرب الذين يجرى فى عروقهم الدم السامى الصحيح ومنه يستمدون عقليتهم حتى لقد تجد أن أهل الادب من الاعراب لم يستسيغوا الكثير من شعر مهيار وابن الرومى، بل ان بشارا لم يتواتر شعره بينهم إلا لما كان فيه من توافق بين منازعه

و بين تصورات أهل العصر الذى عاش فيه. ولولا هذا لانطوى بشار كما انطوى من قبله مهيار وابن الرومى ولم تعرفهما إلا بطون الدواوين والا الاقلون من الادباء الذين امحت من عقولهم آثار العرب خلال بعض الازمان .

على هذا نعتقد أن بشارا من تلك الفئة التى جددت فى أساليب الشعر العربى تجديدا لم يكن أساسه الخيال ولم يعمد الى المعقولات الصرفة يصفها باوصاف الذوات الحية الكائنة ؛ بل عمد الى الحقائق حتى فى مديحه وهجائه ، ولم ينزع الى تلك الاشياء الخيالية التى عكف عليها غيره من الشعراء الذين جرت فى عروقهم الدماء السامية.

أما اذا وقعت في شعر بشار على شىء قد يقال ان فيه نزعة الى العرب فقد تستطيع أن ترجع فيه الى سبب طبيعى. فان أمه عربية ومن المحقق أن يكون لذلك أثر فى شعره وفي عقليته. غير أن الصفة الغالبة فيه هى الصفة الآرية. صفة الاحتكام الى الحقائق الملموسة والى المحسوسات تستوحيها المعنى في قالب عربى مبين .

هو بشار بن برد بن يرجوخ العقيلى بالولاء . وكان أبوه من فرس طخارستان وجىء به في سبى المهلب بن أبى صفرة . و وهبه المهلب الى امرأة من بنى عقيل فتزوجت به ونسب اليها و ولدت منه بشاراً . وكان مولد شاعرنا بالبصرة حوالى سنة ٥٥ للهجرة الواقعة في سنتى (٦٧٤ — ٦٧٥ م) ونشأ بشار في بنى عقيل مولعا بالاختلاف الى الاعراب الذين يخيمون بالبادية فشب على غرارهم فصاحة لسان ، وقوة بيان ، حتى عده البعض آخر من يستشهد بشعره من الشعراء في ضروب اللغة. ولقد ولد بشار مكفوف البصر فعاش ما عاش لا وسيلة له الى المعرفة إلا الاذنين وكفى بهما مع صفاء الطبيعة وقوة الشاعرية ان يخلقا من بشار شاعرا مجيدا ومجددا هو اول المجددين من موالى الفرس الذين تفخر العربية بهم و بآثارهم التى خلفوها وخالد معانيهم الباقية على جدتها وان أخلق الزمان .

والروايات من حول بشار كثيرة والقصص متعددة وجوهه . على أن الروايات قد اتفقت على انه قال الشعر وهو ابن سبع سنين وانه كان أميل الى الهجاء منه الى

اى فن من فنون الشعر . ولا جرم أن من تنزع نفسه الى الشعر فتياً و يكون له من المواهب مايستطيع أن يذلل من طريقها معاور اللغة ؛ يكون في مقدوره أن يبلغ من الشعر مابلغ بشار بن برد في سنى شبابه ؛ وظل عليه الى أن مات.

لم يعرف العرب من ضروب النقد الادبى الا ضربان . أولهما المفاضلة . ومن التجاوز أن ندعو هذا نقدا أدبياً . وثانيهما نقد المعانى والالفاظ من طريق الاتساق واللغة . وهذا أول مدارج النقد . على هذا لانستنكف أن نقول ان العرب لم يعرفوا من النقد الا بدايات قد نأثم أن نقول فى بعضها أنه نقد، وقد نقبل مكرهين أن نقول فيما بقى منها انها نقد أدبى على ماعرف في العصر الحديث .

على أننا نكاد نتخطى اليوم هذا الدور، وان كانت آثاره لا تزال شديدة الفعل في الكثير مما تبرزه أقلام الكتاب والنقاد في عصرنا هذا . غير اننا وقد أزمعنا ان نتكلم في بشار وان نعرض له برأى نحلل فيه نفسيته فانى أرى من الاوفق أن أورد رأى النقاد الذين تكلموا فيه من قبل لعلى أستعين برأيهم على على بلوغ شيء من الحق ينير لنا السبيل. قال الاستاذ الزيات فى بشار أنه.

(١) أول ماتكلم فى الشعر الهجاء : لان سوقة كانت نافقة (٢) وانه طرق أبواب الشعر التى فتحت قبله وزاد عليها (٣) وان الاتفاق بين رواة الشعر ونقدته على أنه رئيس طبقة المولدين (٤) وانه كان مجدداً في المجون ورقة الغزل (٥) وانه جمع بين جزالة البدو ورقة الحضر (٦) وان شعره الحد الاوسط بين القديم والحديث (٧) وانه كامرىء القيس في الجاهليين

ولست تتبع في مجمل هذا على جديد يصح أن تركن اليه فى نقد تتناول فيه بشارا على نمط حديث .

وقال الاستاذ العقاد وهو عندى من أكثر النقاد فهما لطبيعة بشار: أن شعر بشار ينقسم إلى قسمين (١) الاول بدوى تغلب فيه الجفوة، وحضرى تغلب فيه الرقة والنعومة . (٢) وانه اذا انظم فى اغراض الشعر القديمة كان اقرب الى لغة الاعراب

واذا انظم في الغزل والمجون كان اقرب الى اللغة المألوفة الشائعة التى « رقت حواشيها وسلست عباراتها » (٣) وان روح شعره تدل على الطبيعة الحيويه والمزاج الدنيوى الذى يتخيل الاشياء كما يحسها في عالم الواقع القريب (٤) فلا الهـام في شعره ولاحنين ولااشواق ولا بدوات ولاخيال ولـكنها تجربة الدنيا تملى عليه ماينظم من الحـكمة والوصف والغزل (٥) وانه أصلح ادباء العرب لان تؤخذ عن شعره الشواهد الـكثيرة على أساليت الطريقة الطبيعيه الواقعيه التى اشتهر بها بعض ادباء فرنسا على الخصوص فى القرن الاخير .

وهذا الـكلام كثيره حق واقع . على ان الاستاذ العقاد لو رجع الى تحليل عقلية بشار تحليلا اثنولوجيا لاستطاع ان يصيب كبد الحقيقة . على انه مهما كان فى تعليله لطبيعة بشار من تمسح بالدنيويات ليعـلل بذلك حقيقة عقليته الحسية، فانه فى ذلك انما أورد عرض الشيء ليكون علة ، ولم يبلغ الى الجوهر الـكامن في وراثة بشار الآرية عن أجداده الفرس . على ان هذا النقد من ابلغ ماوقعت عليه من صنوف النقد الحديث امعاناً فى التعمق الى الاصول ، أو كما يقولون للعناصر الاولية التى يقوم عليها النقد التحليلى الصحيح .

وقال الاستاذ طه حسين ان بشارا (١) شاعر غزير المادة جدا (٢) وان الجيد في هذه المادة لم يكن صادقا فى شعره ولا مخلصاً . انما كان يتكلف المعانى فى اكثر الاوقات و يتكلف الالفاظ والاوصاف أيضا (٣) وانه لم يكن محببا ولالينا رقيق الطبع والحاشيه ، وانما كان قويا جبارا مبغضا (٤) وانك ان أردت أن تعرف الفن الذى برع فيه بشار فهو فن الهجاء، وفى الحق انه قتل الهجاء وان الهجاء قتله أيضا .

وفي هذا القول من الدلائل مايثبت لك ان الاستاذ طه حسين لم يفهم من نفسية بشار شيئا ، ولا حلل من طبيعة بشار شيئا ، فالقول ان بشارا شاعر غزير المادة ليس بجديد فى نقد بشار ، واما انه يتكلف المعانى والالفاظ والاوصاف

فذلك بالقياس الى المحبين للاستاذ من الشعراء الساميين الذين لم يقف على الفرق بينهم و بين الشعراء الذين تجرى فى عروقهم الدماء الآرية . واما القول بانه قتل الهجاء فليس بصحيح لان شعر بشار لم يصلنا على تمامه وارسال الاحكام العامة بالاعتماد على الجزئيات لا يؤمن معه الزلل والخطأ .والدليل المادى قوله بان بشارا قتله الهجاء ؟ ولست ادرى كيف ان الهجاء يقتل من قتل الهجاء ؟

وقال الاستاذ ضيف ان بشارا (١) رأس المحدثين واشعرهم (٢) وانه من الشعراء الذين احدثوا انقلابا في الاساليب الشعرية وقد ادرك الدولتين الاموية والعباسية (٣) وانه اشتهر بمخالفة الاسلوب القديم وحمل على العرب (٤) وانه استخف بالعادات و بكثير من المسائل الدينية (٥) وان له آراء رجعية في الدين (٦) وانه من أشعر الشعراء وا كثرهم مجونا واقلهم مبالاة بما يقول ويفعل

وهذا النقد أن صح ان نسميه نقدا ليس الا مقررات لم يعلل اسبابها الاستاذ تعليلا صحيحا على الاسلوب العلمى الحديث . وكان فى مستطاع اى ناقد في القرن الاول أو الثانى من الهجرة أن يقول ماقال الاستاذ ضيف فى القرن العشرين .

والحقيقة أن كثيرا من الذين نقدوا بشارا وعلى الاخص الذين قالوا بان الهجاء اظهر مظاهره لم يستطيعوا ان يفهموا الشاعر فهما صحيحا .والذى أفهمه ان الهجو في شعر بشار كان تبعا لنزعه اخرى، ولم يكن صفة اساسية فى نفس بشار. بل ان الصفة الاساسية كانت الاباحة فهى التى دفعت به الى الهجاء وهى التى درجت به في كل ماتقع عليه فى شعر بشار من مظاهر الخروج على المألوف . والسبب فى هذا ان العقلية الطبيعية الواقعية اذا حف بها من الاسباب المدنية والعمرانية ماحف ببشار في ايام الدولة العباسية انقلبت ابيقورية صرفه ، على شرار تلك الفكرات التي احتبكت في العقل الرومانى في أواخر ايام الامبراطورية الغربية

ومن هنا نشأ ما تجد فى بشار من ميل للهجاء واطلاق كل الاشياء اطلاقا أعمى لاحد له ولاغاية .

على اننا قد نتساءل قبل ان نمضى في نقد بشار نقدا أدبيا تحليليا كيف يمكن ان نحكم في بشار حكما صحيحاً ولم يصل الينا من شعره إلا القليل؟ على أنى لا أشك فى أن مجموعة ماوصل الينا من شعر بشار على قلته يزودنا بأقذع ماقيل في الهجاء وأدق ماقيل فى الغزل وأحلى ماقيل في الوصف ، وامتع ماقيل فى التشبيب وادق ماقيل فى المديح وأعظم ماقيل في الفخر وأجدد ما قيل فيما يمكن التفريق به بين الأساليب القريبة من عهد النشأة الاسلامية وأول عصر التحضر العربى .

على انك إذا أردت أن ترى بشاراً في حقيقته فانظر اليه فى اخلاقه ، فهى المرآة التى تريك بشارا رجل حس صرف يتعلق بالدنيويات، لأن طبيعة عقله تنزع الى الاندماج فى الطبيعة ، وكانت الحضارة التى قامت من حوله من أكثر الاشياء تحبيباً لا مثاله فى الدنيا . أفليس ادمانه الخمر وصبوته الى النساء وابتذاله و بعده عن العفة الا أثرا من آثار الحضارة التى حفت به اذ صادفت فيه نزعة ووقعت فيه على بيئة خصبة ؟ اما جبنه وخوفه من المقال والحسام فليس له من سبب الا اعتقاده بأن قول الحق لايزول ، ولا ينسى وان فيه من الدنايا مالو قيل مرة لجرى مثلا ، ويقينه ان الحياة ثمينة لاتشترى بمال ولا تباع بشرف ولا بعزة . ولعل في هذا أثرا من نشأته وتربيته الاولى

روى بأن بشارا هجا روحاً ، وهو شاعر ادرك الدولتين الاموية والعباسية وكان من الفضلاء ومن الرواة الذين أكثروا من حفظ كلام العرب . وكان بين بشار وروح مهاجاة فوصف بشار سيف روح بما يحط من قدره فاقسم اذا القيه ليضربنه بالسيف ولو فى حضرة أمير المومنين ففزع بشار وخاف وقام من فوره الى المهدى يستجير به . فلما حضر روح قال انا عبد امير المؤمنين أطيعه فى كل

شيء الا بشار فقد حلفت من أجله يمين غموس . فقال المهدى ومن أجل بشار دعوتك . وجيء بالعلماء فافتوا بضربه بعرض السيف . فما هوى علية روح تألم وتأوه تأوه النساء . واذا صح هذا كان دليل على حبه الدنيا وتفانيه فى الطبيعة التى ليست الحياة الا أهم مظاهرها وابلغ آياتها

كذلك نجد أنه قد نزع طافرا الى صفات آبائه المرة بعد المرة . وفى هذا دليل على صفاته الآريه الرسيسة المنبثة في تضاعيف فطرته . فقد سئل مرة بأى شيء فقت أهل عصرك ؟ فاجاب على هذا السؤال جواباً عبر في الواقع عن حقيقة عقليته تعبيرا لم يبلغ اليه في شعره وفضح عناصر نفسه بما لايمكن أن يبلغ اليه تعبير فى وصف الطبيعة الحسية والعقليه الاثباتية في ايما متجه من اتجاهات الحياة مشت وفي أى مظهر ظهرت . اتعلم بماذا أجاب بشار؟

« لم أقبل كل ماتورده على قريحتى (فما بالك بما تورده عليه قريحة غيره) ويناجينى به طبعى ويبعثه فكرى . ونظرت الى مفارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات فسرت اليها بفهم جيد وغريزة قوية فاحكمت سيرها . وانتقيت خيرها . وكشفت عن حقائقها واحترزت من متكلفها . والله ماملك قيادى قط الاعجاب بشيء مما آتى به »

وهذه المبادىء بذاتها اذا عم تطبيقها على احتكام العقول فى حقائق الاشياء كانت بعينها حرية الفكر والنزوع الى الواقع المحسوس . وتلك صفة يختص بها العقل الآرى . والواقع اننا لانستطيع أن نعرف بشارا الا من هذه الطريق فهى مفتاحه الذى لايمكننا أن نعالج بغيره مستغلق نفسيته .